عليه الا القليل . وغاية ما يقال في هذا الباب : ان الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي ، يقال : أفصح الصبح اذا ظهر . ثم انهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السرّ فيه »(١). ولا تتبين الفصاحة بهذا القول لانه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات :

الاول : انه اذا لم يكن اللفظ ظاهراً بيّناً لم يكن فصيحا ، ثم اذا ظهر وتبين صار فصيحاً .

الثاني : انه اذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البيّن فقد صار ذلك بالنسب والاضافات الى الاشخاص ، فان اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد ولا يكون ظاهراً لعمرو ، فهو اذن فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا . وليس كذلك ، بل الفصيح هو فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الاحوال ، لانه اذا تحقق حدّ الفصاحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف .

الثالث : انه اذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع وهو مع ذلك ظاهر بين ، ينبغي أن يكون فصيحا ، وليس كذلك لان الفصاحة وصف حسن اللفظ لا وصف قبح. فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل : « ان اللفظ الفصيح هو الظاهر البيّن». ومعنى ذلك ان ابن الاثير لايأخذ بهذا القول الذي اثار حيرته فمضى يبحث عن تعريف للفصاحة ، ويحقق القول فيها . وقد شرح المسألة بوضوح فقال ان المقصود « ان الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن » ان تكون الفاظه مفهومة لايحتاج فهمها إلى استخراج من كتاب لغة ، وانما كانت بهذه الصفة لانها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ، وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الالفاظ لمكان حسنها ، وذلك أن ارباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار الفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسن الالفاظ سبب استعمالها دون غيرها

(١) المثل السائر ج ١ ص ٦٤.

واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ، فالفصيح من الالفاظ هو الحسن.
فان قيل : من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الالفاظ حتى استعملوه وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه ؟

قيل لهم: إنّ هذا من الامور المحسوسة التي شاهدها في نفسها،لان الالفاظ داخلة في حيز الاصوات ، فالذي يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى ان السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل اليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس ، والالفاظ جارية هذا المجرى فانه لاخلاف في أن لفظة «المزنة» و «الديمة» حسنة يستلذها السمع ، وان لفظة «البعاق» قبيحة يكرهها السمع .وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر ،وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فانك ترى لفظتي «المزنة» و «الديمة» وماجرى مجراهما مألوفة الاستعمال وترى لفظ «البعاق» وما جرى مجراه متروكاً لايستعمل ، وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَنْ ذوقه غير سليم .

لقد ثبت ان الفصيح من الالفاظ هو «الظاهر البيّن» ، وانما كان ظاهرا بينا لانه مألوف الاستعمال ، وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ،والذي يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان قبحه . ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ في الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبيح ، ولما لم يكن كذلك علم انها تخص اللفظ دون المعنى .
وابن الاثير لم يفصل بين اللفظ والمعنى في هذا القول وانما خص اللفظ بصفة هي له والمعنى يجيء فيه ضمنا وتبعا .

واشار الى الفصاحة عند المتقدمين فقال: «وقد ذكر من تقدمني من علماء البيان للالفاظ المفردة خصائص وهيئات تتصف بها ، واختلفوا في ذلك ، واستحسن

احدهم شيئا فخولف فيه وكذلك استقبح الآخر شيئا فخولف فيه ، ولو حققوا النظر ووقفوا على السر في اتصاف بعض الالفاظ بالحسن وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف في شيء منها » (١).

ورد رأي من ذهب الى ان كل الالفاظ حسن وقال : « ومن يبلغ جهله الى ان لا يفرق بين لفظة «الغصن» ولفظة «العسلوج» ، وبين لفظة «المدامة» ولفظة «الاسفنط» ، وبين لفظة «السيف» ولفظة «الخنشليل» ، وبين لفظه «الاسد» ولفظة «الفدوكس» ، فلا ينبغي ان يخاطب ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه كما قيل: « اتركوا الجاهل بجهله ولو القى الجعر(٢) في رحله». وما مثاله في هذا المقام الا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط(٣) كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد اسيل وطرف كحيل، ومبسم كأنما نظم من اقاح، وطرة كأنها ليل على صباح. فاذا كان بانسان من سقم النظر ان يُسَوّي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد ان يكون به من سقم النظر أن يُسَوّي بين هذه الالفاظ وهذه . ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام فان هذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب ». ثم قال : « ومن له ادنى بصيرة يعلم أن للالفاظ في الاذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتا منكرا كصوت حمار، وأن لها في الفم ايضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم » (٤).

وذكر ان ابن سنان قد تحدث عما يتعلق باللفظة الواحدة من الاوصاف وقسمها عدة اقسام — كما مر — وفيما قاله ابن سنان لا حاجة اليه ، لان تباعد المخارج

---

(١) المثل السائر ج ١ ص ١٤٨.

(٢) الجعر : مايبس من العذرة في المجعر أي الدبر، أو نجو كل ذات مخلب من السباع

(٣) الشعر القطط : القصير الجعد.

(٤) المثل السائر ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠.

يشمل معظم اللغة العربية ، وان جريان اللفظة على العرف العربي ليس مما يوجب لها حسنا ولا قبحا ، وانما يقدح في معرفة مستعملها بما ينقله من الالفاظ ، وان تصغير الكلمة مما لا حاجة إلى ذكره لان المعنى يسوق اليه. أما الاوصاف الاخرى التي ذكرها ابن سنان فقد اقام عليها ابن الاثير بحثه في الالفاظ فقبل منها ما قبل ورفض ما رفض، وشرح تلك الاوصاف بما يغني عن كثير من الكتب ، وكانت دراسته من أوسع الدراسات وأعمقها ولم يأتِ بعده من أضاف اليها ، واتجهت الكتب إلى التلخيص والقضاء على النزعة الادبية التي اتسمت بها دراسة ابن الاثير .

السكاكي :

وعندما قسم السكاكي (– ٦٢٦هـ) البلاغة إلى علومها لم يعقد للفصاحة فصلا وانما تكلم عليها بعد أن انتهى من علم البيان، وذكر انها قسمان : –

الاول : راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد.

وشرح تعقيد الكلام وقال : هو ان يعثر صاحبه الفكر في متصرفه ويشيك الطريق إلى المعنى، كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلاّ مُملكاً أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه

وكقول أبي تمام :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن كاثنين ثانٍ إذ هما في الغـار

أما غير المعقد فهو أن يفتح صاحبه .للفكرة الطريق ويمهده (١).

الثاني : راجع إلى اللفظ، وهو :

١ – أن تكون الكلمة عربية اصيلة، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدْوَرَ واستعمالهم لها اكثر، لا مما أحدثها المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة.

٢ – وأن تكون أجرى على قوانين اللغة.

٣ – وأن تكون سليمة من التنافر.

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٩٦ – ١٩٧.

وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة التي حصر مرجعها في المعاني والبيان، ولم يجعل للفصاحة مرجعا في شيء منهما، وهو في ذلك يتابع عبد القاهر والرازي اللذين نظرا إلى النظم ولم يوليا اللفظ المفرد اهمية كبيرة.

ابن مالك :

واختصر بدر الدين بن مالك (– ٦٨٦هـ) القسم الثالث من «مفتاح العلوم» وتكلم على الفصاحة وأطلق عليها اسم البديع الذي قال عنه «هو معرفة توابع الفصاحة» وعرّف الفصاحة بانها «صوغ الكلام على وجه له توفية بتمام الافهام لمعناه وتبيين المراد منه»(١). وقسمها إلى معنوية ولفظية، وذكر ما في «مفتاح العلوم» من صفاتهما، ثم قسم المعنوية إلى مختصة بالافهام والتبيين ومختصة بالتزيين والتحسين . وهذه الانواع الثلاثة هي علم البديع عند المتأخرين.

القزويني :

وحينما جاء الخطيب القزويني (– ٧٣٩هـ) وجد الطريق ممهداً فأخذ عن علماء البلاغة المتقدمين ورتب بحث الالفاظ ترتيبا علميا خالف فيه السكاكي وبدر الدين، لانه اتخذها مقدمة للبلاغة، وفي هذه المقدمة التي كانت كشفا عن معنى الفصاحة والبلاغة وانحصار علم البلاغة في المعاني والبيان – تكلم على صفات الالفاظ وما ينبغي أن تكون عليه. وكان بحثه ابتداءاً باتخاذ الفصاحة مقدمة لعلوم البلاغة بعد أن كانت موضوعا تشيع فيه الحياة (٢).

بدأ القزويني مقدمته بقوله : « للناس في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة لم أجد – فيما بلغني منها – ما يصلح لتعريفهما به ولا ما يشير إلى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما المتكلم ، فالاولى أن نقتصر

---

(١) المصباح ص٧٥.

(٢) ينظر القزويني وشروح التلخيص ص٢٤٩–٢٨٣.

على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين »(١). وهذا غير صحيح ، لان البلاغيين اهتموا بهما ووضعوا لهما حدوداً وفرقوا بينهما ، وكانت بحوث الجاحظ وقدامة وأبي هلال وعبد القاهر وابن سنان وابن الاثير من أروع ما كتب وأبدع ما خطته يد بلاغي ناقد ، وما مقدمة القزويني إلا خلاصة هذه الدراسات ، فكيف لم يترك القدماء تعريفا للفصاحة أو البلاغة يمكن الركون اليه ، ولعله في ذلك متأثر بدعوى عبد القاهر الذي يقول : « لم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والاشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج »(٢) ويقول : « انا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للاولين ويتدارسوه ، ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم أن يسألوا عن بيان له وتفسير ، الا علم الفصاحة فانك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظا للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا أو يستطيعوا ان يسألوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً يصح »(٣).

وهذا صحيح في عهد التأليف الاول وعند عبدالقاهر الذي لم يفرق بين المصطلحين ، لانهما عنده يعبر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا واخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم(٤) ، اما القزويني فالامر عنده مختلف ، لان مصطلحات البلاغة استقرت في عهده وأصبح للفصاحة والبلاغة محتوى واضح .

والفصاحة والبلاغة عند القزويني تقع كل واحدة منهما صفة لمعنيين :

الاول : الكلام كما في « قصيدة فصيحة أو بليغة » و « رسالة فصيحة أو بليغة »

(١) الايضاح ص٧.
(٢) دلائل الاعجاز ص٢٨.
(٣) دلائل الاعجاز ص٣٥٠.
(٤) دلائل الاعجاز ص٣٥.

الثاني : المتكلم كما في «شاعر فصيح أو بليغ» ، و «كاتب فصيح أو بليغ» .

وتحدث عن فصاحة اللفظة المفردة ، وقال ان الفصاحة تقع صفة للمفرد فيقال «كلمة فصيحة» ، ولا يقال «كلمة بليغة» . ووضع للفظة المفردة شروطاً هي خلوصها من :

١ – تنافر الحروف : والتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان كما رُوي أن أعرابياً سئل عن ناقته فقال : «تركتها ترعى الهعخع» .

ومنه ما دون ذلك كلفظة «مستشزر» في قول امرىء القيس :

غدائرها مستشزرات إلى العلى تضلّ العقاص في مثنّى ومرسل

ولم يشرح القزويني هذا التنافر ولم يذكر علته ، وكان ابن سنان قد علله بقوله : «وعلة هذا واضحة وهي ان الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر ولاشك في أن الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الالوان المتقاربة ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب مابينه وبين الاصفر وبعد مابينه وبين الاسود . واذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش اذا مزجت من الالوان المتباعدة» (١) .

لقد جمعت لفظة «الهعخع» القبح من أطرافه ، لان جميع حروفها حلقية ، وحرف حلقي واحد يبعث على الثقل فكيف اذا اجتمع الهاء والعين والخاء في كلمة واحدة؟ ولفظة «مستشزرات» – وان كانت أخف منها – ثقيلة لتوسط الشين التي هي من الحروف المهموسة الرخوة بين التاء التي هي من المهموسة الشديدة والزاي التي هي من المجهورة الرخوة . ويرى النقاد أن امرأ القيس لو قال : «مستشرف» لزال الثقل .

٢ – الغرابة : وهي ان تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفته إلى البحث في كتب اللغة ، كما رُوي عن عيسى بن عمر النحوي أنه سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال : «مالكم تكأكأتم عليّ تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني» .

---

(١) سر الفصاحة ٦٦ .

أو يخرج له وجه بعيد كما في قول العجاج :

وفاحماً ومَرْسِناً مُسَرَّجـا

فانه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجا » حتى اختلف في تخريجه ، فقيل : هو من قولهم للسيوف « سريجية » منسوبة إلى قين يقال له سريج ، يريد أنه في الاستواء والدقة كالسيف السريجي . وقيل من السراج ، يريد انه في البريق كالسراج ، وهذا يقرب من قولهم : « سرج وجهه » أي : حَسُنَ ، و « سرّج الله وجهه » أي بهجه وحسنه .

وهذا بحث اهتم به النقاد والبلاغيون كابن سنان الذي عاب الذين يكثرون من الوحشي الغريب في كلامهم وذكر ما وقع فيه بعضهم فخرج كلامه عن الفصاحة وبعد عن الفهم (١). وكابن الاثير الذي يرى أن الوحشي ليس المستقبح من الالفاظ وانما هو قسمان : غريب حسن ، وغريب قبيح (٢).

٣ - مخالفة القياس اللغوي : كقول الراجز :

الحمدُ لله العليِّ الأجْلَلِ ‌ ‌ ‌ الواهبِ الفَضْلِ الكريمِ المُجْزِلِ

فان القياس « الأجل » بالادغام .

ولم يوضح مخالفة القياس ، وكان ابن سنان قد تكلم عليه ووضحه وأدخل فيه كل ما ينكره اهل اللغة ويردّه علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة (٣).

ووضع القزويني قاعدة للفظة الفصيحة فقال : « ثم علامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيراً أو اكثر من استعمالهم ما بمعناها »(٤).

وبعد ان انتهى من شروط اللفظة الفصيحة تحدث عن فصاحة الكلام وهي :

١ - خلوصه من ضعف التأليف : ومثل له بقوله : « ضربَ غلامُهُ زيداً » فان رجوع الضمير إلى المفعول المتأخر لفظاً ممتنع عند الجمهور لئلا يلزم رجوعه إلى ماهو متأخر لفظاً ورتبة ، وقيل يجوز لقول الشاعر :

---

(١) سر الفصاحة ص٧٥.
(٢) المثل السائر ج١ ص٥٧، ١٥٥، ١٦٣.
(٣) سر الفصاحة ص٨٢-٩١.
(٤) الايضاح ص٤.

جزى ربه عني عدي بن حاتم   جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

٢ – **التنافر**: وهو أن تكون الالفاظ بسببه متناهية في الثقل على اللسان متتابعة كما في البيت الذي انشده الجاحظ:

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

ومنه ما دون ذلك كقول أبي تمام:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى   معي واذا ما لمته لمته وحدي

وسبب التنافر في «أمدحه» مابين الحاء والهاء من تنافر لانهما حلقيان، وتكرار الكلمة في الشرط والجزاء.

٣ – **التعقيد**: وهو أن لايكون ظاهر الدلالة على المراد به وله سببان:

الاول: مايرجع إلى اللفظ وهو ان يختل الكلام ولا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

ووضع القزويني قاعدة للكلام الخالي من التعقيد اللفظي وقال انه: «مما سلم نظمه من الخلل فلم يكن فيه ما يخالف الاصل من تقديم أو تأخير او اضمار او غير ذلك الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية (١). وهذا ما تكلم عليه عبدالقاهر وسماه «التعقيد» أو «فساد النظم» (٢) وادخله ابن سنان في بحث التقديم والتأخير (٣)، وعده ابن الاثير من المعاظلة المعنوية التي يسببها التقديم والتأخير (٤).

الثاني: ما يرجع إلى المعنى وهو أن لايكون في انتقال الذهن من المعنى الاول إلى المعنى الثاني الذي هو لازمه والمراد به ظاهراً كقول العباس بن الاحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

---

(١) الايضاح ص٦.
(٢) اسرار البلاغة ص١٦٢.
(٣) سر الفصاحة ص١٢٥.
(٤) المثل السائر ج١ ص٢٩٤، ج٢ ص٤٤ وما بعدها.

كنّى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن ، وأصاب ، لان من شأن البكاء ان يكون كناية عنه كقولهم : « أبكاني واضحكني » أي : اساءني وسرني ، كما قال :

أبكاني الدهر وبا ربما أضحكني الدهر بما يرضي

ثم طرد ذلك في نقيضه فأراد ان يكنّى عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شيء آخر ، واخطأ لان الجمود خلو العين من البكاء في حال ارادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرّة وانما يكون كناية عن البخل كما قال الشاعر :

ألا انّ عيناً لم تجدْ يوم واسط عليك بجاري دمعها لجمودُ

وضبط القزويني الكلام الخالي من التعقيد وقال عنه : « ماكان الانتقال من معناه الاول إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهراً حتى يخيّل إلى السامع أنه فهمه من حاقّ اللفظ » (١).

وأضاف إلى ذلك خلوص الكلام من كثرة التكرار ، كقول المتنبي :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

وخلوه من تتابع الاضافات ، كقول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي فانت بمرأى من سعاد ومسمع

وكان الصاحب بن عباد قد أشار اليه بقوله : «اياك والاضافات المتداخلة فإنها لا تحسن » ويرى القزويني ان هذا الشرط لا يؤخذ به دائما ، لان ذلك ان افضى باللفظ إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه وإلاّ فلا تخل بالفصاحة ، وقد قال النبي — صلى الله عليه وسلم — : «الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف ابن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم». وهذا رأي عبد القاهر الذي قال : «ولكنه اذا سلم من الاستكراه ملح ولطف» :

ومما حسن فيه قول ابن المعتز :

---

(١) الايضاح ص٦.

وظلّت تدير الراح أيدي جآذر عتاق دنانير الوجوه مِلاح

ومما جاء فيه حسنا جميلا قول الخالدي يصف غلاما له :

ويعرف الشعر مثل معرفتي وهو على أن يزيد مجتهد

وصيرفي القريض وزّان دينا ر المعاني الدقاق منتقد (١)

ومما يتصل بالالفاظ المركبة : الفنون التي سماها البلاغيون « المحسنات اللفظية» وهي عظيمة الاهمية في دراسة الالفاظ ، وينبغي ان توضع في بحث الفصاحة لان لها تأثيراً في الكلام . واذا تابع القزويني صاحب « مفتاح العلوم » فتحدث عنها في البديع فان دراستها هنا اجدى واكثر نفعا . وقد سبق إلى ذلك علماء البلاغة كابن الاثير الذي قسم الصناعة اللفظية قسمين :

الاول : في اللفظة المفردة .

الثاني : في الالفاظ المركبة ، وهي السجع ، والتصريع ، والتجنيس ، والترصيع ولزوم ما لايلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الالفاظ ، وتكرار الحروف .

هذه دراسة البلاغيين للفصاحة أما النقاد فقد تحدثوا عن دقة الالفاظ وايحائها وسهولتها وجزالتها والفتها وغرابتها وغير ذلك مما نجده في كتب البلاغة والنقد، وهو حديث فيه طرافة وجدّة يتمم ماذكره البلاغيون عن الفصاحة واوصافها .

---

(١) الايضاح ص ٨، ودلائل الاعجاز ص ٨٢ .

المبحث الثاني

البلاغة

كلمة «البلاغة» من الكلمات التي شاع استعمالها في كتب الادب، وكانت هي والفصاحة صنوين تستعملان معاً او تستعمل الواحدة في موضع الاخرى.

في اللغة :

والبلاغة – في اللغة – الانتهاء والوصول، وفي لسان العرب : «بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا : وصل وانتهى. تبلغ بالشيء : وصل إلى مراده. البلاغ ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب. البلاغ : مابلغك، والكفاية. الابلاغ : الايصال بلغت المكان بلوغا : وصلت اليه، وكذا اذا شارفت عليه».

وأشار ابن منظور إلى المعنى الاصطلاحي فقال : «البلاغة : الفصاحة. والبَلْغ والبِلْغ : البليغ من الرجال. ورجل بليغ وبَلْغٌ وبِلْغٌ : حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ مافي قلبه، والجمع بلغاء. وقد بَلُغَ بلاغة : صار بليغاً».

وليس في هذا القول غير المعنى العام للكلمة، فهي – أولا – الانتهاء والوصول إلى الغاية، وهي – ثانيا – الفصاحة، أي ان الكلمتين مترادفتان. وهذا رأي معظم اللغويين والبلاغيين الاوائل.

في القرآن :

ولو تلمسنا هذه اللفظة في التراث العربي لرأيناها شائعة معروفة، وقد جاءت لفظة «بليغ» في قوله تعالى : «فأَعْرِضْ عنهم، وعِظْهُم، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً» (1).

يقول الراغب الاصفهاني في تفسيرها : «البلاغة تُقال على وجهين : أحدهما أن يكون بذاته بليغاً، وذلك بأن يجمع ثلاثة اوصاف : صوابا في موضوع لغته،

(1) النساء ٦٣.

وطبقاً للمعنى المقصود، وصدقاً في نفسه: ومتى اخترم وصف من ذلك وكان ناقصا في البلاغة.

والثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له وهو أن يقصد القائل أمراً فيرده على وجه حقيق أن يقبله المقول له. وقوله تعالى: «وقل لهم في أنفسهم قولا بليغاً» يصح حمله على المعنيين» (١).

وذهب الزمخشري مذهباً نفسياً في تفسيرها، واشار إلى تأثيرها رمزاً في قوله: «قل لهم قولا بليغاً مؤثراً في قلوبهم يغتمون به اغتماما ويستشعرون من الخوف استشعاراً» (٢).

في الحديث:

وليس في احاديث النبي – صلى الله عليه وسلم – مايشير إلى هذا المعنى مع كثرة ماجاء من مشتقاتها في كلامه (٣). فقد ورد عنه قوله: «أن الله يبغض البليغ الذي يتخلل بلسانه». وجاء عنه انه عاب فيه المتشادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها (٤).

في التراث:

ولا نكاد نعثر على بغيتنا في فترة صدر الاسلام، وحينما جاء العصر الاموي نجد معاوية بن أبي سفيان يسأل صحار بن عياش: ماهذه البلاغة التي فيكم؟ «قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا». وقال له معاوية: ماتعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الايجاز. قال له معاوية: وماالايجاز؟ قال صحار: وان تجيب فلا تبطيء، وتقول فلا تخطيء» (٥).

وفي كتاب «البيان والتبيين» تعريفات كثيرة للبلاغة عند العرب وغيرهم، فقد قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟

(١) المفردات في غريب القرآن ص٦٠.
(٢) الكشاف ج١ ص٤٠٧.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ج١ ص١٥٢.
(٤) البيان والتبيين ج١ ص٢٧١.
(٥) البيان ج١ ص٩٦.

قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندي : ماالبلاغة؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . وقال بعض أهل الهند : « جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة » (١) .

وفسَّرها عمرو بن عبيد (- ١٤٤ هـ) في أول الامر تفسيراً دينياً حين قيل له ما البلاغة ؟ قال : مابلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد . قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال : ليس هذا اريد . قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إنّا معشر الانبياء بكاء » أي قليلو الكلام ، ومنه قيل « رجل بكيء » . وكانوا يكرهون ان يزيد منطق الرجل على عقله . قال السائل : ليس هذا أريد . قال كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام مالا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل : ليس هذا أريد . قال عمرو : فكأنك تريد تخير اللفظ في حسن الافهام؟ قال : نعم . قال : انك اذا اوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالالفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الاذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستحققت على الله جزيل الثواب (٢) .

وقال الاصمعي (- ٢١٦هـ) عن البليغ انه : « من طبق المفصل واغناك عن المفسّر » (٣) :

وقال العتابي (- ٢٢٠ هـ) أن : « كل من أفهمك حاجته من غير اعادة ولا حُبسة فاظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحقّ » (٤) .

---

(١) البيان ج١ ص٨٨ .

(٢) البيان ج١ ص١١٤ ، وينظر عيون الاخبار ج٢ ص١٧٠ .

(٣) البيان ج١ ص١٠٦ .

(٤) البيان ج١ ص١١٣ .

الجاحظ :

ولم يعرّفها الجاحظ (— ٢٥٥هـ) بعد أن ذكر كثيراً من تعريفاتها ، واكتفى بأن اختار قولاً أعجبه . يقول : « وقال بعضهم — وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه — لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك » (١).

وليس في هذا التعريف ما يشير الى المعنى الاصطلاحي الذي حدّده البلاغيون. والجاحظ في كل ما ذكر لايضع بين الفصاحة والبلاغة حداً ، فكثيراً ماتأتيان مترادفتين ، وهما عنده البيان بمعناه الواسع قبل أن يقيده المتأخرون .

المبرد :

والمبرد (—٢٨٥هـ) رسالة صغيرة سماها «البلاغة» أجاب فيها عن رسالة احمد ابن الواثق الذي سأله : «أي البلاغتين أبلغ ؟ أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع وأيتهما عندك — أعزك الله — أبلغ؟» .

وأجابه المبرد : «إنّ حق البلاغة احاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظر حتى تكون الكلمة مقاربة اختها ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول » (٢).

ومصطلح «البلاغة » في هذه الرسالة لايعني العلم المعروف ، وانما هو تحديد لبعض معانيها . وإذا لم نجد فيها ما نطمح اليه فاننا نستطيع القول أن المبرد أول مَنْ أطلق «البلاغة» على بعض رسائله .

العسكري :

ويظهر مصطلح البلاغة بوضوح في «كتاب» الصناعتين «لابي هلال العسكري (— ٣٩٥هـ) الذي قال : «إنّ أحق العلوم بالتعلم وأولادها بالتحفظ بعد المعرفة بالله — جل ثناؤه — علم البلاغة ومعرفة الفصاحة »(٣) وقال : «البلاغة من قولهم

---

(١) البيان ج ١ ص ١١٥ .
(٢) البلاغة ص ٥٩ .
(٣) كتاب الصناعتين ص ١ .

بلغت المكان ، اذا انتهيت اليها وبلغتها غيري ، ومبلغ الشيء منتهاه والمبالغة في الشيء: الانتهاء الى غايته ، فسميت البلاغة ، بلاغة ، لانها تنهي المعنى الى قلب السامع ، فيفهمه . وسميت البلغة بلغة لانك تتبلغ بها فتنتهي بك الى ما فوقها وهي البلاغ ايضا » (١) وأبدى رأيه في تعريفها ، وحدّها بقوله : «البلاغة : كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن » (٢) .

والبلاغة – عنده – من صفة الكلام لا من صفة المتكلم ، ولذلك لايجوز ان يسمى الله بليغاً ، إذ لايجوز ان يوصف بصفة موضوعها الكلام . وتسميه المتكلم بانه بليغ توسع وحقيقته أن كلامه بليغ كما تقول : «رجل محكم» ونعني أن افعاله محكمة . قال تعالى «حكمةٌ بالغة » (٣) فجعل البلاغة من صفة الحكمة ولم يجعلها من صفة الحكيم ، الا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بانه بليغ كالحقيقة .

وفي كتاب الصناعتين رأيان :

الاول : أنّ الفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما ، لان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له .

والثاني : ان الفصاحة والبلاغة مختلفتان ، ذلك ان الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ لان الالة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما هي انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى (٤) .

ابن سنان :

وحاول ابن سنان الخفاجي (– ٤٦٦هـ) ان يحدّ البلاغة ويرسم معالمها غير انه لم يأتِ بالكلمة الفاصلة والتعريف الجامع المانع . ولم يك وحده الذي فعل ذلك

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٦ .
(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠
(٣) القمر ٥ .
(٤) كتاب الصناعتين ص ٧

فقدمرّت بالبلاغة تعريفات كثيرة نقلها الجاحظ في «البيان والتبيين» وأبو هلال في «كتاب الصناعتين» ، ولذلك أشار الى اضطراب القوم في حدّها والوقوف على كنهها وقال : «وقد حدّ الناس البلاغة بحدود اذا حققت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة . فمن ذلك قول بعضهم «لمحة دالة» وهذا وصف من صفاتها فأما أن يكون حاصراً لها وحدّاً يحيط فليس ذلك بممكن لدخول الاشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد» (١) .

ولم يعرّف البلاغة ، وانما فرّق بينها وبين الفصاحة وقال : «والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ ، والبلاغة لاتكون الا وصفا للالفاظ مع المعاني : لا يقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً» (٢).

لقد وضع ابن سنان حداً فاصلا بين المصطلحين ، وحصر الفصاحة في الالفاظ والبلاغة في المعاني والالفاظ ، واصبحت الفصاحة شطراً للبلاغة وأحد جزئيها . وهذه التفاتة حسنة ، ولكنه اطلق «الفصاحة» على موضوعات البلاغة وسمى كتابه «سر الفصاحة» ومعنى ذلك انها تشمل الالفاظ والمعاني . وقد أوضح ذلك بقوله : «و في البلاغة اقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو واذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزئيها فكلامي على المقصود – وهو الفصاحة – غير متميز الآ في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره ، فأما ما سوى ذلك فعام لايختص ، وخليط لاينقسم» (٣) .

وابن سنان حينما ينتقل الى تأليف الكلام يظل مرتبطاً بالحديث عن الالفاظ ، لان البلاغة أن توضع الالفاظ موضعها حقيقةً أو مجازاً ، تقديماً او تأخيراً ، قلباً او حشواً ، وغير ذلك مما فصل القول فيه .

(١) سر الفصاحة ص ٦٠
(٢) سر الفصاحة ص ٦٠
(٣) سر الفصاحة ص ٦١

عبد القاهر :

ولم يفرّق عبد القاهر (٤٧١هـ) أو (٤٧٤هـ) بين المصطلحين ، لانهما يعبر بهما عن «فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا او تكلموا واخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم » (١).

والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان تأتي مترادفة عنده ، ومعنى ذلك أن الحدود بينها لم تتضح ، وأن هذه المصطلحات لم تستقل وتأخذ معناها الدقيق.

الرازي :

ولم تأخذ لفظة «البلاغة» دلالتها المعروفة عند فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) وهي عنده: «بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الايجاز المخل والاطالة المملة» (٢) ولكنه ربط الفصاحة والبلاغة بالمعنى ، ونحا منحى عبد القاهر في فهمها.

ابن الاثير :

وقال ابن الاثير (– ٦٣٧هـ) أن الكلام يسمى بليغاً لانه بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية ، «والبلاغة شاملة للالفاظ والمعاني وهي أخص من الفصاحة كالانسان من الحيوان وليس كل حيوان انسانا ، وكذلك يقال : « كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا » وفرّق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهي انها لا تكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة المفردة لاتنعت بالبلاغة وتنعت بالفصاحة اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلاما (٣).

السكاكي :

وحينما قسم السكاكي (٦٢٦ – هـ) البلاغة ووضع معالمها في كتابه « مفتاح العلوم» عرفها تعريفا دقيقا وقال : «هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥ .
(٢) نهاية الإيجاز ص ٩ .
(٣) المثل السائر ج ١ ص ٦٩ .

بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها »(١)؛ وبهذا التعريف أدخل مباحث علم المعاني وعلم البيان ، وأخرج مباحث البديع لانه وجوهٌ يُؤتى بها لتحسين الكلام وهي ليست من مرجعي البلاغة .

وللبلاغة طرفان : أعلى وأسفل متباينان تباينا لايُرى لاحد ناراهما وبينهما مراتب متفاوتة تكاد تفوت الحصر ، فمن الاسفل تبتدىء البلاغة ، وهو القدر الذي اذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بأصوات الحيوانات ثم تأخذ في التزايد متصاعدة الى أن تبلغ حد الاعجاز ، وهو الطرف الاعلى وما يقرب منه .

ولم يعرّف الفصاحة واكتفى بتقسيمها الى قسمين : قسم راجع الى المعنى ، وقسم راجع الى اللفظ ، ولم يجعلها لازمة للبلاغة التي وحصر مرجعيهما في المعاني والبيان . وقد أشار القزويني الى ذلك بقوله : «وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة ، وحصر مرجع البلاغة في الفنين ،ولم يجعل الفصاحة مرجعاً لشيء منهما»(٢) وقال التفتازاني : «لم يجعل البلاغة مستلزمة للفصاحة ، وحصر مرجعهما في المعاني والبيان دون اللغة والصرف والنحو»(٣) ، ورأى أنّ مرجعها الى هذه العلوم جميعا لا الى مجرد المعاني والبيان .

ولكن السكاكي — مع ذلك كله — رأى أن البلاغة بمرجعيها والفصاحة بنوعيها « مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين »(٤) ، ولذلك نراه حينما حلل بعض الآيات القرآنية اتخذ من مرجعي البلاغة ومن الفصاحة مقياسا لاظهار ما فيها من صور بيانية ، ومن روعة وتأثير في النفوس .

القزويني :

وكان الخطيب القزويني (– ٧٣٩هـ) آخر من وقف عند البلاغة من المتأخرين وميز بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم ،فقال عن الاولى : «أما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام

(١) مفتاح العلوم ص١٩٦.

(٢) الايضاح ص٢٤٠.

(٣) المطول ص٣.

(٤) مفتاح العلوم ص٢٠٠.

متفاوتة ، « فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام . وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه عبد القاهر النظم » (١) .

وقال عن الثانية : «وأما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » (٢) .

وقرّر ان كل بليغ — كلاماً كان أم متكلماً — فصيح ، وليس كل فصيح بليغا ، وأن البلاغة في الكلام مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره .

وقسّم البلاغة الى ثلاثة اقسام ، فكان ما يحترز به عن الخطأ علم المعاني ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته علم البديع . فالبلاغة — عنده — ثلاثة :

١. علم المعاني
٢. علم البيان
٣. علم البديع

ولم يخرج البلاغيون المتأخرون عن هذا التعريف والتقسيم ، واصبح مصطلح البلاغة يضم هذه العلوم الثلاثة .

---

(١) الايضاح ص٩ ، والتلخيص ص٣٣ ، ٣٣ .
(٢) الايضاح ص١١ .